ملحـــق

الرعاية الدينية للعميان

نتناول موضوع الرعاية الدينية للعميان فى ختام هذا الكتاب ، لأننا لا يمكن أن نكون فى وضع يسمح لنا بأن نرى هذا الموضوع فى تمام سياقه إلا إذا فرغنا من تناول العمى ودلالته .

يرى بعض الناس أن الشيء الوحيد الذى يمكن عمله مع العميان من زاوية الدين إنما هو تقديسهم ، أو اعتبارهم قديسين . وهذا صحيح إذا قصدنا من ورائه أن الشيء الوحيد الذى يجب أن يفعله الدين بالشخص ، وبالتالى بالأعمى ، إنما هو أن يجعله قديسا . ولكنه يكون غير صحيح إذا قصدنا من ورائه أن الأعمى مدعو بصفة خاصة إلى القداسة دون غيره من بنى البشر .

ووجهة النظر الأخيرة هذه ليست من الدين ، وإنما هى خرافة . إنها ليست خرافة صريحة أو مقصودة . ولكنها خرافة على كل حال ، خرافة لا تبتعد كثيراً عن خرافة القبائل البدائية التى غالباً ما تؤله العميان ، معتقدة أنهم ، على نحو ما ، قبس خاص من الله[1] . وكما هو الشأن فى الخرافات بصفة عامة ، ترجع هذه الخرافة إلى مخاوف غامضة وانفعالات دفينة . يبدو الأعمى وكأن عنده قدرات تأملية لا يملكها الباقون منا . وربما لا تبتعد هذه الخرافة كثيراً فى أصلها عن المعتقدات الجاهلة المتعلقة « بالعين الشريرة » .

ومع هذا المفهوم يسرى شعوراً بصدمة حين يقترف العميان إثما

---

(١) يرجع ذلك فى رأينا إلى انتماء الأضداد إلى مقولة مما يتضح فى لمستوى اللغوى فى كلمتى « عجز » و « إعجاز » انظر كتابنا « الأنماط الانفعالية للمكفوفين » ، وباقى السلسلة (مكتبة الأنجلو بالقاهرة) . (المترجم) .

وهو شعور يفوق كثيراً فى شدته شعور الصدمة عندما يقترف المبصرون الإثم . والصدمة إزاء الإثم ليست بالشيء الكريه ولا شك إذا ما حدث إزاء « كل » إثم وليس إزاء بعض أشكال الإثم فحسب ، إذا ما كانت صدمة إزاء الآثام التى يقترفها كل الناس ، وليست فحسب إزاء الآثام التى تقترفها بعض الجماعات . (تنشأ هنا صعوبات فى التعريف ؛ فبعض أنواع « الصدمة » إزاء الإثم ليست نتيجة اتجاه متزن يبغض أى تعد على الله بقدر ما هى نتيجة اختلال عصابى وروحانية مضطربة) . أما الشعور بالصدمة إزاء آثام العميان والرضا بآثام غيرهم من البشر فليس إلا ضربا من الخرافة .

والذين يتوقعون من العميان أن يكونوا أكثر طهراً من بقية البشر ، أحياناً ما يفصحون عما يستشعرونه حين يقترف أعمى إثما بخرقه للقانون الإلهى : « ها هم أولاء قد حرموا حاسة وهبها الله للباقين منا . ألا ترى أنهم كان ينبغى أن يكونوا قريبين من الله قرباً يجعلهم يخجلون من هذا ؟ » وليس هناك من منطق خاص يوضح ما يحاولون أن يقولوه ؛ إنه يبدو أكثر منطقية أنه إن كان هناك فارق ما بين الجماعتين فإن العبء الأكبر ينبغى أن يكون علينا نحن المبصرين ، علينا نحن الذين وهبنا الله أكثر فى مجال الحواس . وإنه ليبدو أنه إن كانت هناك صدمة أكبر إزاء آثام جماعة عما هى إزاء الجماعة الأخرى ، فينبغى أن تكون بالنسبة لنا نحن الذين أعطانا الله الكثير . ولكن ليس للخرافة من منطق خاص .

ومتى آمنا بأن النمو فى القداسة يقاس بدرجة قدرتنا على المطابقة ما بين إرادتنا وإرادة الله ، فربما أمكننا القول بأن العميان جماعة عندهم « فرصة أكبر للبلوغ إلى درجة أعلى فى القداسة ؛ نعم نستطيع أن نقول له ذلك مع تنبيهنا إلى عوامل أخرى كثيرة » ، وذلك على أساس أن إرادة الله قد تطلبت منهم ما هو أكثر — فبالنسبة لهم يتضمن الخضوع لإرادة الله خضوعاً لإرادته

التى سمحت بإصابتهم بإعاقة مروعة متعددة الجوانب لم يتعرض لها الباقون منا .

ويقودنا ذلك مباشرة إلى سؤال آخر : ما هو الاتجاه الذى يطلبه الله إزاء هذه الإعاقة ممن يعانونها ؟ الكثرة الكثيرة من الناس يعتقدون أن عليهم أن يقللوا ويهونوا من شأن إعاقتهم ، وإلا فإنهم لا يبدون الخضوع الذى يطلبه الله . الكثرة الكثيرة يبدو أنهم يعلمون هذه الفكرة ذاتها للعميان : « انظروا إلى العمى بحسبان أنه ليس بهذا السوء الذى يبدو عليه ؛ قولوا إنه عبء صغير . لا تفكروا فيـــه على أنه خطير ، وإلا ظهرتم بمظهر المنكر لإرادة الله » .

وإن هذا الاعتقاد الغريب بأن الله الحق يمكن أن يطلب منا إنكار الحق لهو اعتقاد يصعب فهمه . فحينما تنكسر ذراع الواحد منا فإن الخضوع لإرادة الله لن يقتضينا أن نسمى ذلك أو نعتقد بأنه مجرد « التواء شديد » — نوع من الشد العضلى فيما نظن » . وحين نعانى الألم فإن الله لا يتوقع أن الرضا بمشيئته ينبغى أن يجعلنا نقول أو نفكر أن ذلك ليس ألماً فى الواقع — « نوع من الحكة ، ضرب من عدم الارتياح » .

وحين يصاب شخص بإعاقة العمى ، فلا ينتظر منه أن يقلل من وقع العمى (بأكثر مما ينتظر منه أن يبالغ فيه) : عليه بالأولى أن يقدر العمى على ما هو عليه ، فى دلالته . فعندئذ فقط يمكنه أن يعطى معنى للقول : « أبانا ، لتكن مشيئتك لا مشيئتى » .

والمسيح فى آلامه لم يحاول أن يقلل من عذابه المروع . لقد صلى كيما يتخلص من هذا العذاب : « يا أبتى إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس » . وهذه الصلاة للأعمى كل الحق فى أن يرددها حين يحاول أن يخلص نفسه من إعاقة العمى — باستعادة البصر بكل وسيلة أخرى متاحة — وحين

يحاول أن يحقق تعويضاً بكل وسيلة ممكنة عن فقدانات العمى حتى يجعل من العمى إعاقة أقل مما يمكن أن تكون عليه وفى النهاية مأوى المسيح ، كما يجب على كل معوق أن يحاول : « وفى هذا لن تكون مشيئتى بل مشيئتك » .

وحب الحق يقتضى أن ينظر الأعمى إلى إعاقته نظرة موضوعية كلما أمكن — متقبلا فى نفسه كل عبء العمى — ومقدرا فى نفسه كيف أن كل طبيعته البشرية تتمرد على وجه بعد الآخر من أوجه العمى ، وكيف أن طبيعته ترفض وتنكر وتكره عمله .

فإذا ما أخفى الحقيقة على نفسه فغالبا ما يكتشف أن الرفض والإنكار والكراهية إنما تتراوح فى اتجاه آخر وأنها يمكن أن تنقلب متجهة ضد الآخرين ، أو متجهة ضد نفسه ، بل ومتجهة أحيانا ضد الله .

أما إذا نما الأعمى حقا فى القداسة ، وإذا ما كان عماه (حين يتقبله) أداة لهذا النمو — فعندئذ يمكنه ، فى تقدمه نحو الله ، أن يصبح شكورا على هذه الأداة « كنير هين وكعبء خفيف » من أجل المسيح . ومن الممكن فى وضوح أن تتحقق الكراهية « الإعاقة » العمى مع الحب « لصليب » العمى .

ومشكلة وجود الشر الخلقى والمادى تجابهنا برمتها فى مجال العمى مع العميان على نحو ما تجابهنا فى كل احتكاك لنا بالأشخاص الذين يعيشون الألم أو الحرمان . ونقترح أن نبتعد عن استخدام كلمة « الابتلاء » من حيث إن مدلولاتها تشير إلى القصاص ، ومن حيث إنها تتضمن أكثر من مجرد إرادة الله التى قضت بذلك ، ومن ثم فغالبا ما تؤدى هذه الكلمة إلى استنتاجات زائفة .

وهنالك الكثير من المفاهيم التى نحتاج إلى أن نستوضحها لأنفسنا

وللآخرين . فينبغى التمييز ما بين القداسة الحقة ومختلف أشكال القداسة الزائفة . فذلك « الاستشهاد ، الزائف » الذى يألفه كل أب اعتراف وكل موجه روحى إنما نلتقى به بين العميان كما نلتقى به فى أى مجال آخر : فالأعمى كالمبصر ممكن أن يلبس قناعا بحيث يجعل الناس يعتقدون أنه شهيد ، مستسلم تماماً لكل الضربات التى يكيلها له الدهر ، وهو فى نفس الوقت ينسج لنفسه مكانا يسيطر منه على آلامه ، على كل من حوله بحيث يجعل كل أهل بيته يدورون فى فلك مشيئته . إن الشهيد الزائف يعمل على استثارة مشاعر إثم مروعة عند كل المحيطين به حين يسمحون لشكوكهم فى صدقه أن تقرب من السطح . ومع كل طفحة إثم جديدة يزداد الشهيد سيطرة وتحكماً أكثر فأكثر ، والشىء المريع (وهو حقا مريع ومروع) فى هذا الأمر أن الأعمى بصفة عامة لا يأتى ذلك عن وعى . إن الأمر يجرى بكليته تحت السطح إلى درجة أن « الشهيد » نفسه يكون مقنعا (ويكاد يقتنع) بإنكاره لذاته . فالاستسلام هنا أو التظاهر بالاستسلام ليس متولدا عن الحب ، ولكنه على العكس رداء يخفى كراهية مروعة . إنه استسلام يغتذى بالكراهية ويغذى الكراهية .

ثم نأتى إلى الانحرافات الاجتماعية والتمردات بأشكالها المختلفة . ونحن نحتاج هنا إلى أن نتعلم متى تكون هذه كلها مجرد إزاحة لإنكار الإعاقة والتمرد عليها . فالذنوب المرتكبة ضد الكنيسة والمجتمع وضد قوانين الزواج الإلهية — غالبا ما نستطيع أن نستكشف بين جذورها ذلك التمرد العميق ذاته (الذى ربما لا يعيه الأعمى وربما اعتقد أنه ليس إلا ضربا من « الاستنارة » أو شيئاً من هذا القبيل) ونعنى التمرد ضد العمى الذى لم يتقبله صاحبه ؛ لأنه لم يلتق به مكتملا قط .

أما من الناحية الأخلاقية (ونعنى مسألة طاعة القوانين الإلهية أو الخروج عليها) فنحن نعلم بادئ ذى بدء بطبيعة الحال أن القوانين الإلهية ملزمة

للعميان وللمبصرين على السواء ، وفى نفس الوقت نجد بين الظروف التى تغير من طبيعة الخطيئة (بما يزيد من الإثم أو ينتقص منه) عديدا من العوامل المتصلة بالعمى وبالخبرات المتناقصة بسبب العمى . ولسوف نتحقق من هذه الأمور بصورة أكثر اكتمالا متى عرفنا العمى ذاته بصورة أكثر اكتمالا .

وفيما يتصل بواجب العبادة الجماعية يوم الأحد لا نستطيع أن نقرر قاعدة عامة ، فبعض العميان يعفون منها عادة لأنهم مرضى وملازمون الفراش ، وغيرهم يعفون منها لأن لديهم مشكلات عصابية خطيرة تجعل من المستحيل عليهم أن يذهبوا وسط الجموع . وغيرهم يعفون لأنهم يستشعرون خوفاً من الانتقال إلى حد أنهم لاينتقلون قط إلى أى مكان ، ولكن هناك الكثيرين من العميان الذين يشاركون فى المناشط العادية فى المجتمع المحلى أثناء الأسبوع ، فهم يذهبون إلى العمل وإلى أماكن الترويح . من الخطأ الفادح أن نعفى بصفة عامة مثل هؤلاء العميان من واجب العبادة الجماعية متعللين فحسب بالعمى وحده[1] .

ونحن بحاجة إلى أن نعرف أيضاً كيف يختلف أى شكل من أشكال العبادة الجماعية بالنسبة إلى العميان اختلافاً « محسوساً » عما عليه الأمر بالنسبة إلى المبصرين . فنظام الأسرار الكنسية كله يكون المادى فيه رمزاً للروحى . وما يظهر للحواس يرمز لما يظهر للروح . فإذا لم نتأمل الأمر جيداً فمن الممكن أن تغيب عنا كثرة الاستثارات الموجهة إلى حاسة

---

(١) كل دراسة علمية ينبغى أن تبتعد بالموضوعية عن ذاتية الباحث واهتماماته الخاصة ، وإلا فإنه يقحم على العلم ما ليس من العلم فى شىء . من هنا كان خطرا اشتغال بعض رجال الدين بالمباحث العلمية . (المترجم) .

الإبصار[1] حيث الأشياء « المرئية » بمعنى الكلمة تتأدى بالمتعبدين إلى الأشياء غير المرئية . وإدراك هذه الصعوبة كان بالغ الأهمية فى إعانتنا على التربية الدينية للأطفال العميان . فينبغى أن نهتم بجعل كل شىء « ملموسا » أثناء عملية التربية هذه حتى يمكنهم أن يعرفوا ماذا يجرى فى وضوح تام ؛ وهذا مهم أيضاً عنـــد تناولنا ، وعند تفهمنا لمشكلات الراشدين من العميان فيما يتصل بالخدمات الدينية .

وبالنسبة للكتب الدينية (بالإضافة إلى ما قلناه عن مصادر القراءة بصفة عامة فى الفصل ١٣ والابتعاث ٨) ، ينبغى أن نكون على حذر فلا نشجع تعدد جمعيات النسخ « بالبراى » ، فهمتنا أن نزيد من تداول كتب « البراى » ، لا أن نعدد ونضاعف من نسخ الكتاب الواحد .

وفى هذا المقام يهمنا أن نعرف بين كتب « البراى » ، مقدار النسبة المئوية التى بكتب « الوحى » أيحتمل أن بعضا من هذه على الأقل يرجع إلى الخرافة التى تحدثنا عنها من قبل ؟ يبدو أحياناً وكأن بعض الناس نظروا إلى العميان وقالوا : « هذه جماعة تستطيع أن تفرض عليها القداسة » . فعند الرغبة فى اجتذاب أناس إلى الله يوجد دواما إغراء بمحاولة فرض القداسة عليهم . ولكن هذه المحاولة لا يمكن بحال أن تكون محاولة مثمرة . إننا قد ننجح فى فرض مظهر القداسة على بعض الناس ، ولكن القداسة لا تأتى إلاّ من الداخل .

---

(١) وهذا يصدق بصفة خاصة ، كما فى الطقس الرومانى فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى الوقت الحاضر ، متى كانت لغة القداس غير مفهومة من الشعب . فمن الصعوبة بمكان بالنسبة إلى الكاثوليكى العادى الأعمى أن يركز تفكيره على المذبح أثناء إلقاء القداس . فهؤلاء تتوافر لديهم مساعدة من كتاب صلاة القداس « بالبراى » ، من حيث إن نقل صلاة القداس بالبراى يتطلب مجلدات يكون استخدامها غير عملى . ومن أجل ذلك فإن جماعة من القساوسة الكاثوليك المعينين للعمل مع العميان دون سواهم قد أصدروا قرارا بمطالبة الأسقف بأن يلتمس من قداسة البابا أن يصرح لهم باستخدام اللغة القومية فى صلاة القداس .

إن مهمتنا هى أن نتيح للناس النمو (كما يشاء الله فى الحق لهم أن ينموا) وأن نهيء لهم الفرص كيما يتعلموا عن الله ، فنقدم لهم فى كل مرحلة من مراحل نموهم معارف عن الله تلائم هذه المرحلة ، إن علينا أن نعينهم ونساعدهم بحيث يبلغون إلى الاستقلال عنا . علينا أن نحميهم من مسالك الشر ، لا بين جدران البيت وإنما فى العالم . علينا أن نحميهم من الأذى الخلقى لا بأن نحول بينهم وبين النمو ، وإنما بالحرى بتعليمهم أن ينموا بحيث يختارون بأنفسهم الخير ويتجنبون الشر .

ذلك هو الشأن بالنسبة إلى الكتب الدينية للعميان . ينبغى أن نحاول بكل وسيلة أن نضع فى متناولهم تلك الكتب الدينية التى تساعدهم على أن يعرفوا الله ويحبوه . ولكن لا يجوز لنا أن نحاول ما هو أكثر (ولا ما هو أقل) بحيث نجعل كل كتبهم دينية بحتة ، بأكثر مما يجب أن نفعل مع جماعة المبصرين .

إن العمى إعاقة متعددة الجوانب ، وعلى الشخص الذى يهتم بالنمو الروحى للعميان أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يحاول الحصول على أكبر قدر ممكن من المعرفة عن العمى حتى يمكنه أن يساعدهم . وفى بعض الأوقات سوف يكون عليه أن يطلب إرشاداً خاصاً من أولئك الذين تخصصوا لمزيد من المعرفة عن المشكلات الخاصة بالعمى . ليس فى طبيعة العمى على أى حال ما يدعو إلى نقل الرعاية الروحية للعميان بعيداً عن الكنيسة العادية . والجمعيات الدينية الخاصة بالعميان هدفها أن تجعل الأعمى عضواً أفضل فى كنيسته . والمعيار الصحيح لنجاح هذه الجمعيات والمبرر الحقيقى الوحيد لوجودها هو مدى ما تحققه فى هذا السبيل .